العرب
السبت 2021/03/20
السنة 43 العدد 12005

أزمة العدالة والتنمية وحظوظه الانتخابية

محمد ماموني العلوي
صحافي مغربي

الأحزاب ذات المؤسسات الضعيفة أقل فاعلية في احتواء الخلافات الداخلية وتمثيل ناخبيها وهذا يضعف ويقوض أداءها الانتخابي. نختبر هذه المقولة من خلال تصورات الناخبين والمتابعين لوضعية حزب العدالة والتنمية وأدائه قبل الانتخابات وخلال إدارته للشأن الحكومي والمحلي، مستخدما حيلة الاستقطاب العاطفي عبر العزف على وتر المظلومية والهوية والمخاوف بشكل انتهازي، وهذا يتطلب منا التعرف على الإنذارات الكاذبة.

لقد استفاد العدالة والتنمية من منطق انتخابي خاص لم يكن من الممكن تصوره قبل خروج المتظاهرين إلى الشارع في العشرين من شهر فبراير من العام 2011، بعد أن ساءت الحظوظ الانتخابية لجميع الأحزاب الرئيسية في المرحلة السابقة واستفاد منها العدالة والتنمية. ويرجع ذلك إلى التفكير قصير المدى المتمثل في عدم الثقة بالحكومة. فهل بنفس هذا المنطق والتفكير يمكن القول إن حزب العدالة والتنمية سيهبط من المرتبة الأولى التي يحتلها حاليا؟

بعد نجاح العدالة والتنمية في قيادة حكومتين على مدى عشر سنوات، كانت النتيجة أن المواطن المغربي أصيب بخيبة أمل ولم تعد لديه ثقة في حكومة يقودها الحزب. وسبب الغضب أن الحزب رفع شعارات ضخمة وأغدق وعودا لم يحقق منها حتى النزر اليسير. ومع ذلك ورغم الظروف التي يعيشها الحزب توقع عدد من القيادات، وعلى رأسهم الأمين العام سعدالدين العثماني، أن يكتسح الحزب الانتخابات المقبلة ويحقق المرتبة الأولى بفارق معتبر.

لا بد من أخذ الحذر من التنبؤات السابقة لأوانها، خصوصا أن العدالة والتنمية يعمل على إحياء الصراعات التقليدية بينه وبين الأصالة والمعاصرة والتجمع الوطني للأحرار وشيطنتهما معا لإضعافهما، غير منتبه إلى حقيقة أن المواطن أصبح واعيا بتلك المخططات. وأن تلك الأحزاب، ومعها أحزاب أخرى، تدخل المنافسة من خلال ما يمكن وصفه بالتجديد السياسي القادم من القواعد وبتأثير من وسائل التواصل الاجتماعي.

وإذا كان العثماني قد اعتبر باقي الأحزاب خصوما، مقللا من قدرتها على محاصرة حزبه، ومؤكدا أن البعض يتحدث عن خطر الولاية الثالثة للبيجيدي (حزب العدالة والتنمية)، ويحاول ترميم بيته من الداخل خوفا منه، فإن عبداللطيف وهبي الأمين العام لحزب الأصالة والمعاصرة يؤكد وبنفس الثقة أن حزبه سيكون بديلا للموجودين اليوم في الحكومة. وهي إشارة تحد قوية أطلقها غريم للعدالة والتنمية قبل الانتخابات المقبلة؛ معتبرا تنظيمه مخيفا بالنسبة إلى الجميع لأنه يزداد قوة يوما بعد يوم.

هناك طيف من أعضاء العدالة والتنمية يقتات على فكرة طوباوية مفادها أن الحزب لا يُقهر، وهو قادر بفضل قاعدته الانتخابية على محاربة طواحين الهواء. وقد يكون أحد مفاتيح الخروج من هذا المطب القاتل، الاستئناس بما قاله نائب الأمين العام للحزب سليمان العمراني بأنه "لا يمكن للحزب، بسبب من قوته الانتخابية، أن يملك القرار وحده".

بالمنطق السياسي والحسابي لا يمكن دخول معترك الانتخابات والبيت الداخلي مفكك ويحتاج بدوره إلى الترميم. العدالة والتنمية يعيش ظروف هذه الأزمة التي آخر تمظهراتها تجميد عبدالإله بنكيران رئيس الحكومة والأمين العام السابق للعدالة والتنمية عضويته بالحزب في رسالة مكتوبة بخط اليد عبر حسابه على فيسبوك بتاريخ 11 مارس 2021، مع قطع علاقاته مع قيادات حزبه وعلى رأسهم العثماني ومصطفى الرميد وعزيز رباح ومحمد أمكراز، وهم وزراء مشاركون في الائتلاف الحكومي إلى جانب الوزير السابق لحسن الداودي.

أراد بنكيران من تجميد عضويته، التي عاد وتراجع عنها يوم الخميس الماضي، تحقيق هدف مزدوج، الأول شحن طاقته السياسية والتحشيدية داخل هياكل الحزب، والثاني استعادة مشروعية وجوده التي انخفضت كثيرا خلال سياسة الأرض المحروقة التي انتهجها. وكانت نية بنكيران منذ إعفائه من تشكيل الحكومة في العام 2017، تفخيخ الحقل أمام الرجل الذي سيحل محله في الحزب وفي الحكومة.

لقد وصل الجفاء بين أعلى قيادات حزب العدالة والتنمية مداه، ما يطرح تساؤلات حول الديمقراطية الداخلية وحرية الرأي، وهل هي مجرد نغمة للاستعطاف الداخلي والتبجّح الخارجي.

لم ينضبط عدد من قيادات وقواعد الحزب لتوجيهات العثماني بعدم التعليق حول ما صدر عن بنكيران، سواء من الجناح الموالي للأمين العام السابق أو من المتعاطفين مع رؤية رئيس الحزب الحالي. ما يعني أن حلقة أساسية في هذا التنظيم تصطدم مع الواقع الجديد، وهي الانضباط لمؤسسات وقيادة الحزب، وهو ما يستدعي التشكيك في قدرة القيادة الحالية أو القادمة على التعامل مع مثل هذه الأمور، ويهدد بتزايد التوترات والصراعات التي تؤثر على صنع القرار الداخلي.

هناك من يتوقع عودة قوية لبنكيران من جديد رغم إحالته على التقاعد حتى وإن دفعته ظروف حزبه والمحيط إلى تأسيس حزب سياسي جديد. ونعتقد أن الأمر جد معقد والزمن المادي والسياسي لا يسعف الرجل للبدء من جديد من نقطة الصفر. إضافة إلى أن دبلوماسية الجنائز التي يعتمد عليها في تصريف حساباته السياسية بلبوس وعظي لا يمكن الركون إليها في الواقع السياسي.

ويعتبر رفض محمد الحمداوي عضو الأمانة العامة لحزب العدالة والتنمية ورئيس حركة التوحيد والإصلاح سابقا التنصيص على تجريم التطبيع مع إسرائيل في البيان الختامي للمجلس الوطني الأخير للبيجيدي، فتوى سياسية وشرعية تعني أن الحزب وذراعه الدعوية غير مستعدين للمغامرة بإعطاء فرصة سياسية أخرى لأطروحة بنكيران المناقضة لتوجهات الدولة.

في المحصلة لا بد أن يؤدي الامتياز الانتخابي عبر صناديق الاقتراع إلى إعادة توزيع السلطة التنفيذية والتشريعية بما يخدم التوازن في المشهد الحزبي ويبني الثقة بين المواطن والمؤسسات السياسية ويضع خارطة طريق لإنقاذ الديمقراطية بكل حمولتها السياسية والتمثيلية من خلال استغلال التوقيت المتزامن لاتباع نهج الإصلاحات التي دشنتها الدولة والاستمرار في ورش مفتوحة اجتماعيا وسياسيا وحقوقيا ودبلوماسيا.

إسلاموفوبيا المسلمين

علي الصراف
كاتب عراقي

العنصرية جزء من طبيعة الغرب. ولكن الانتصار عليها ممكن. يتطلب الأمرُ فهما، أولا، ثم عملا على أساس ذلك الفهم.

عندما يُحذر الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش من أن التمييز والكراهية ضد المسلمين "ارتفعا إلى مستويات وبائية"، فذلك يعني أن العنصرية باتت في أضعف حالاتها. فالخوف الذي يتحول إلى هستيريا معادية للمسلمين، يكاد يقول إنه تجرّد من أسلحته، وبات عاجزا عن إيجاد التبرير المناسب للموقف الثقافي أو الاجتماعي الذي ينطلق منه.

ولكن، لاحظ، أن المسلمين يفعلون الشيء نفسه، في دلالة على أنهم اختاروا الهزيمة حيال المهزوم. وفي ذلك ما يكفي من الأدلة على حجم التعاسة الذي نحن فيه.

العنصرية سلوك دفاعي قبل كل شيء. تبدو ترفعا وتعاليا وشعورا بالتفوق، إلا أنها تخفي ضعفا من وراء ذلك كله.

أحد أهم مصادر الضعف هو أنها تأخذ بالقوة ما لا تستحقه بالنقاش. التصوّر المتعلق بتفوق "العنصر الأبيض" لا يستقيم مع أي مقومات علمية، ولا ثقافية ولا أخلاقية، ولا تاريخية أيضا. هذا العنصر الأبيض المتفوق، لم يستخدم الصابون إلا منذ بضع مئات من السنين. قبل ذلك، ظل وسخا على طول الخط.

وهو همجي أيضا. الجزء الأكبر من تاريخه، قائم على مسالك وحشية حيال النفس والآخر، وظل الكسب المادي، باعتباره مصدر القوة، هو الدافع الرئيسي من وراء تلك الهمجية.

أقصى مسافة يمكن بلوغها في فكرة الغرب عن الطبيعة والوجود، وتاليا عن نفسه، لا تذهب أبعد من سقراط وأفلاطون وأرسطو. وهي مسافة قصيرة من الزمن. ولكنها أقصر بكثير من حيث القدرة على مقاومة الانشغالات المادية التي صنعت القوة والتفوق العلمي، وأهملت المعنى الأخلاقي من الوجود.

وحيثما كان يمكن للمسيحية أن توفر بعض السبيل، إلا أنها هُزمت مرتين. الأولى عندما أصبحت سلطة قائمة على الدجل والتزوير. والثانية، عندما فشلت في بناء المعايير الإنسانية والأخلاقية للمسيحية نفسها. وهي معايير ترتبط، بالأساس، بأسئلة الفلسفة الأولى؛ أسئلة التأمل والبحث عن تفسير ومعنى للوجود.

الهزيمة إذن، كانت ولا تزال موجودة في لبّ التكوين الحضاري للغرب. وكلما زاد قوة وتفوقا ماديا، اتسعت الهوة مع تلك المعايير.

الآن يبلغ عود القوة الحضارية للغرب أشده. ولكنه عودٌ منخورٌ بالخوف؛ عودٌ بات يدرك أن الهوة الأخلاقية التي تفصل بين الثقافة وبين الاقتصاد اتسعت إلى حدود الانهيار التام.

الدولة حاولت أن تبني جسورا لردم هذه الهوة. هذا هو مصدر القوانين التي سعت إلى تجريم العنصرية والكراهية وانعدام المساواة والتمييز على أساس الجنس أو العرق أو اللون.

ولكن لا أحد يجب أن ينسى حقيقة أن ذلك ترافق مع توسع الاقتصاد الرأسمالي نفسه، الذي "اكتشف" حاجته إلى أسواق خارجية، ليرى أنها شديدة التلوّن والاختلاف وتصدر عن مفاهيم اجتماعية وأخلاقية وأديان، صار من الضروري استيعابها وقبولها لكي يمكن التعامل معها.

القوانين، كسلطة زجر، لا تفضي إلى تغيير ثقافي بنفس سرعة التطبيق. والأفكار العنصرية القائمة على الخوف من الآخر، تزداد تفشيا في قاع المجتمع، كلما ارتفعت سلطة الزجر. ولهذا السبب، فإن العنصرية متفشية أكثر بين أولئك الفقراء أنفسهم الذين عجزت الفلسفة عن أن تصل إليهم بأجوبتها. الآخر عدو، لأنه "يأكل غدائي"، بحسب التعبير السائد في الولايات المتحدة، والذي يفلت من حين إلى آخر من لسان الرئيس جو بايدن عندما يتحدث عن الصين. العنصرية موجودة في دفين الفكرة عن النفس؛ في الخوف من تقدم الآخر، كما في الطمع. ولكنها عنصرية لم تطلها القوانين عندما انحسرت إلى القول العابر، والنكتة، والسلوك العمومي، إلا أنها تزداد فشلا وتنحدر إلى الهامش الاجتماعي؛ هامش اليمين الذي يراهن على الجهل والخوف ممن "يأكل غدائي".

هذا كله جانب واحد من المشكلة. نحن الجانب الآخر. وبمقدار ما يتعلق الأمر بـ"الإسلاموفوبيا"، فنحن نفعل الأسوأ. ولكن ليس لأننا لم نقدّم نموذجا حضاريا، أو فشلنا في إثبات صلاحيته، وقدرته على صنع التقدم، بل لأننا اخترنا الهزيمة أمام المهزوم.

المسلمون في أوطانهم فشلوا إلى حد كبير في بناء نموذج قادر على الصمود أمام التحديات السياسية والاقتصادية والأخلاقية المعاصرة. وهم ينشغلون بقتل بعضهم البعض في العديد من البلدان بأسوأ مما يفعل الهمّج. وكلما زادت أوضاعهم الحياتية تدهورا زادوا تطرفا، ولاذوا أكثر بالبحث عن جواب ديني بعيد. إنما من دون يدركوا الحاجة إلى تجسير معانيه وأدواته، لكي تجعله جوابا غير مفارق.

انعزالية المسلمين في الغرب هي التي أحاطتهم بسور العنصرية فاختاروا العيش في غيتوهات مغلقة، وعجزهم عن تجسير الجواب الديني البعيد مع القيم الإنسانية المعاصرة جعلهم عاجزين عن الاستفادة من سلطة القانون

الفشل الحضاري هو الذي صنع موجات الهجرة إلى الغرب، ليقع المهاجرون بين فكي رحى.

الانكفاء على النفس كان خيارا لمجموعات كبيرة من المهاجرين، ليس بسبب الخوف، وإنما بسبب مشاعر تفوق أخرى، فارغة ماديا، وتتخذ من صواب الدين ستارا لتعويض عقدة النقص.

الإسلاموفوبيا لم تندلع فقط بسبب أعمال الإرهاب التي نفذها مسلمون، وليس فقط بسبب الوحشية التي حرص تنظيم داعش على تقديمها كصورة للإسلام، وإنما لأن المهاجرين أنفسهم قدموا لها التبرير بعجزهم عن الانخراط في المجتمع الذي هربوا من فشلهم إليه.

الغالبية العظمى من مجتمعات المهاجرين تعيش في غيتوهات مغلقة. وهي غيتوهات خوف بالدرجة الأولى.

انعزالية المسلمين في الغرب هي التي أحاطتهم بسور العنصرية. وعجزهم عن تجسير الجواب الديني البعيد، مع القيم الإنسانية المعاصرة، جعلهم عاجزين حتى عن الاستفادة من سلطة القانون.

بدعوته إلى "الضغط من أجل سياسات تحترم حقوق الإنسان والهوية الإنسانية الدينية والثقافية"، لدى إحيائه أول يوم عالمي لمكافحة رهاب الإسلاموفوبيا، استشهد غوتيريش بالآية القرآنية الكريمة "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا".

فهل لاحظت المفارقة؟

المسلمون أنفسهم، بعزلتهم، هم أول من نسي هذه الآية.

في ثمانيات القرن الماضي، انتفض حي بريكستون في لندن، الذي يغلب على سكانه السود، لسبب هو بالضبط عكسُ السبب الذي يجعلُ المسلمين لا ينتفضون.

سود بريكستون واجهوا ما تفرضه عليهم العنصرية من عزلة. أرادوا أن ينخرطوا في المجتمع، وأن يحظوا بنصيب عادل من الوظائف، وأن تعامل الشركات مدينتهم كما تعامل أي مدينة أخرى، فتفتح لها فروعا، وتعيّن موظفين من أبنائها.

نادرا ما تجد أسود بريطانيا لا يجيد اللغة الإنجليزية. وبالرغم من أن أديانهم مختلفة، وثقافتهم مختلفة، إلا أنهم غالبا ما ينظرون إلى أنفسهم كجزء من المجتمع ويرفضون أن يُعاملوا بغير هذا الأساس.

المسلمون يفعلون العكس. إنهم ينفصلون. يلوذون بالفرار من الشراكة، ولا يريدون أن يتعارفوا مع أحد. وهم وحدهم أهل التقوى. وبحكم أنهم يملكون القدرة على مقاضاة الناس، فقد قاموا بتكفير المجتمع برمّته. والأب الذي كان يخاف على بناته، أنتج ولدا مستعدا للقيام بأعمال تفجير ضد هذا المجتمع.

هل توجد هزيمة أبلغ وطأة من هذه؟

لي ابنة واحدة. عندما دخلت مدرستها الأولى في بلدة رومفورد، شمال شرق لندن، كان القول الأول لي معها: أن تفوقي. إذا كانت هناك وظيفة يتقدم لها إنجليزي وأنت، وكنتما على المستوى العلمي نفسه، فإن الوظيفة ستذهب إليه. شرط الفوز الوحيد هو التفوق. ومنذ أن تخرجت، لم تعجز عن وظيفة، حتى أصبحت ذات عام، المدير التنفيذي لموسوعة غينيس (وكانت المسلمة والعربية الأولى التي تحظى بهذا المنصب).

وثمة مسلمون ممن ارتقوا مناصب وزارية في الحكومة البريطانية، وكانوا نوابا ولوردات. لم يصنعوا ذلك بالعزلة ولا بالخوف. وتقدموا بأن بددوا الخوف من حولهم، وجرّدوه من ذرائعه.

الإسلاموفوبيا، نوعان مع الأسف. واحد تصنعه العنصرية ضد المسلمين. والآخر تصنعه عنصرية المسلمين بأنفسهم. الأول تعبير عن خوف بلا مبرّر. والثاني، يوفر له التبرير.